النقد والعقلانية والثورة عند فؤاد زكريا

د.غيضان السيد علي(*)

لا يمكن أن يكون هناك مفكر أصيل بدون موقف نقدي، فالموقف النقدي هو بمثابة نقطة الانطلاق، بل ويمكن وصفه بأنه ذلك الموقف الذي يرى ضرورة مناقشة المعلومات كلها، ويرى أنه ليس ثمة معرفة مقبولة إلا بعد بحث وتمحيص، والنظرة النقدية تكون الحافز والدافع للباحث لسبر غور موضوعه، ولولا النظرة النقدية للظواهر الكونية ولفكر السابقين لما وجد لدى الباحثين والعلماء والمفكرين موضوعات للبحث والدراسة ولأصبح الإنسان تابعًا لا مبدعًا مقلدًا لا مجددًا، وبدون هذه النظرة أيضًا تموت روح الابتكار والإبداع.

والنقد بشكل عام يُفهم منه التمييز بين الحقيقي والزائف، الغث والسمين، الحق والباطل، الصواب والخطأ... الخ، وقد يهدف النقد أيضًا إلى الكشف عن الأسس التي تتأسس عليها الرؤى المطروحة للنقد بهدف الوعي بها وتجاوزها لتأسيس أسس تتماشى مع طبيعة المشكلة قيد البحث فيصير النقد بشكل عام بمثابة التبرير الأساسي لمشروعية طرح رؤية جديدة تطمح إلى إثبات أصالتها وضرورة وجودها لمعالجة مشكلة ما من مشكلات البحث العلمي والفلسفي المتعددة، وبذلك يكون النقد بمثابة الخطوة الأولى نحو بناء النسق الفكري وقد يكون الخطوة الأولى والأخيرة ولا ينتقص ذلك من مكانة الناقد كمفكر أصيل.

إذ يذهب بعض الفلاسفة المعاصرين إلى اعتبار النقد فلسفة أو النقد هو الفلسفة منهم على سبيل المثال الفيلسوف الأمريكي المعاصر جوزيا رويسJosiah Royce الذي يقول: «المرء يتفلسف حينما يفكر تفكيرًا نقديًا في كل ما هو بصدد عمله بالفعل في هذا العالم حقًا، إن ما يعمله الإنسان أولاً وقبل كل شيء إنما هو أن يحيا، والحياة تنطوي على أهواء وعقائد، وشكوك

(*) مدرس الفلسفة الحديثة بآداب بني سويف.

وشجاعة، ولكن البحث النقدي في كل هذه الأمور إنما هو الفلسفة بعينها، وهذا يدل على أن الفلسفة بمعناها العام إنما هي حياة ونقد للحياة.

أما النقد عند فؤاد زكريا فلا يختلف عن ذلك المعنى كثيرا؛ إذ يعني في مجمله إعمال العقل أو ما أطلق عليه العقلانية وهي الاعتماد على العقل معيارا ومرجعية؛ إذ منح فؤاد زكريا الأولوية للعقل في إدراك الوجود، وإبداع العالم، فهو النور الذي يهتدي به الإنسان، ويصوغ به عالمه متحررا من أشكال الوصاية التي تحجر على العقل أو تقيد انطلاقه، وأكد على اقتران نور العقل بحرية الإنسان وحقه في اختيار فعله الخلاق وممارسته في كل مجال من مجالات الفعل المعرفي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وذلك في مواجهة طوائف أخرى استبدلت بالعقل النقل وبالحرية العبودية، وبالاختيار الجبر، وبالعدل الظلم... إلخ.

ولذلك جعل العقل دائما فوق أسوار الخرافة وركام الجهل والتعصب، وكانت الدعوة إلى الحرية هواية مارسها باحتراف لأكثر من نصف قرن (حرية الاستخدام العلني للعقل في كل الأمور)، حروب مقدسة خاضها المفكر الفيلسوف ضد التخلف والمسلمات الفكرية والثوابت الظلامية متحصنا بالعقل النقدي، رافعا راية العقلانية حتى النهاية.

وبدت ثمرات ثورته العقلية في إبراز أركان الدعوة إلى العقل النقدي والدولة المدنية، والعمل على جر الفلسفة واستدراجها من برجها العاجي والنزول بها إلى حياة الناس ومعاملاتهم اليومية، وهو في ذلك صاحب مشروع حضاري تنموي ثوري، يفوق تنظيرات المتعملقين ومدعي التفلسف - وما أكثرهم - الذين حولوا الفلسفة إلى تابوهات وطلاسم ومناطق اهتمام محظورة لا يمسها الا المتخصصون.

وقد أثرى الدكتور فؤاد زكريا الحياة الثقافية والفكرية العربية بنتاجات كثيرة وترجمات عديدة، على مدى أكثر من نصف قرن، اتسمت بتحريض العقل، ونقد السائد في الفكر العربي، وقدرة فذة على التحليل والفهم الدقيق للمصطلح الفلسفي وبرعاية فائقة في الكشف عن المناطق السلبية والمعتمة في مسيرة الأمة العربية التي تسيطر عليها مشكلات مزمنة، منها الانسياق وراء الوهم والخرافة والخلط بين ما هو علمي وغير علمي، والبعد عن مواجهة الحقائق وطبيعتها المحايدة، وشيوع التفكير اللاعقلاني، وغياب المنطق، وحضور الخرافة.

وقد بلغ اهتمامه بالنقد وبالتفكير النقدي وبالعقل معيارًا ومرجعية أن قضى عمره كله محارباً للعشوائية في التفكير واثقاً في قدرة العقل على التحليل المنظم لكافة المشكلات ومؤكداً أيضاً على قدرته العميقة والهائلة والهادئة على الإقناع والخروج من ذلك النفق المعتم التي ذلت فيه قدم الأمة العربية تحت تأثير وطأة التخلف والسلفية والاستلاب الثقافي. وظل طوال سنوات علمه وتعلمه وعمله وتعليمه في حرب شرسة لا هوادة فيها ضد الجهل والخرافة والتفكير الغيبي، ولم يكن يخشى في قول الحق لومة لائم ولا سلطة سلطان ولا يأبه بشيء إلا بما يتفق وموقفه العقلي العام.

أما «العقلانية» فقد كانت طريقة لبناء المجتمع، وقد وقف مختلفاً معترضاً ومجاهداً لأرائه وأفكاره إلى حد الصدام وحدود المجابهة والمواجهة ليس ضد من «هم» في غير موقعه ومكانته أو الاتجاه الأيديولوجي الذي ينتمي إليه والمدرسة الفكرية والفلسفية التي نافح عنها وكافح من أجل الذود عنها ومع من يقفون في اليسار في الفكر والممارسة، بل لقد هاجم عقلية الخرافة والسحر ووقف ضد الأفكار التي تقف إلى جانب الفكر المتطرف وتسانده، وكان من أوائل من حذر من سيادة هذه الأفكار السوداء وأحد المفكرين الذين أحلوا مفهوم «الإسلام السياسي» وذلك في كتاب «الصحوة الإسلامية في مجال العقل» ثم في كتابه الأخر «الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية».

لقد كان فؤاد زكريا طوال مسيرته وحياته الفكرية والفلسفية والعلمية أحد دعاة «العقلانية» التي دعا إليها عبر كتاباته ودراساته ومحاضراته، وكان رأيه دائماً لا سيادة للعرب والمسلمين إلا بوجود تلك العقلانية التي تجعل التربة العربية قابلة لزراعة البذور الأولى لمبادئ وقيم التنوير وأن تصبح قيمة التاريخ ليس فيما مضى، ولكن قيمة هذا التاريخ تعزز وتتأسس فيما سوف يأتي من أجل اللحاق بركب الحضارة الغربية والأخذ بكل أسباب التقدم بالرغم من أن الدكتور فؤاد زكريا يعد أحد خصوم السياسة الأمريكية على المستوى الثقافي في نموذجها الاستهلاكي لا فيما ينتجه هذا العقل الأمريكي من منتج علمي وتكنولوجي.

وقد أعلى الدكتور فؤاد زكريا من شأن العقل النقدي والتفكير الناقد وأظهر دوره الهام في دراسة المشكلات المختلفة؛ نعرض منها على سبيل المثال لا الحصر رؤيته العقلانية النقدية في دراسة الفلسفة ومناقشة الأوضاع السياسية والدينية وأيضاً النظم الاقتصادية، وشئون الواقع العربي الثقافي والفكري ويبدو ذلك فيما يلي:

١- العقلانية الفلسفة

كان فؤاد زكريا يفضل من تاريخ الفلسفة أولئك الفلاسفة الذين دعوا إلى العقلانية واتخذوها منهجا وشعارا، فكان يفضل من القدماء هيراقليطس وأفلاطون ومن فلاسفة الإسلام المعتزلة وابن رشد ومن الفلسفة الحديثة اسبينوزا ومن الفلسفة المعاصرة برتراند رسل وجان بول سارتر، ومن المفكرين العرب طه حسين وزكي نجيب محمود وذلك اعتقادا منه أن العقل هو أكثر المفاهيم والمصطلحات استخداماً في مجال الفلسفة حيث يمكن القول أنه لا يمكن أن توجد فلسفة دون عقل، وكلما كان استخدام العقل أكثر دقة وإحكاما كانت الفلسفة كذلك.

ونحن إذ نتحدث عن العقلانية والفلسفة عند فؤاد زكريا فإننا يمكننا القول بأن مفكرنا قد قام بإنزال الفلسفة من علياءها التاريخي الموروث إلى صخب الشارع ومعاركه الكبيرة والصغيرة، وبدأ دعوة جادة إلى التفلسف الحق وإتباع المنهج العقلي وإقرار حكم العقل واحترام التفكير المنطقي وتطبيقه في شتى أنواع المعاملات، ورفض أمثال تلك الأقوال التي ترى أن «الفلسفة مضيعة للوقت» و«الفلسفة لا تحل أي مشكلة» و«الفلسفة لا تعالج إلا مشكلاتها الوهمية الخاصة - بل إنها تعجز عن حل هذه المشكلات» و«لم يظهر أبداً فيلسوف تحمل ألم في الضرس». وذهب إلى القول بحتمية الفلسفة وأنه لا يستطيع أن يسلم منها أحد ،إنها عرض من أعراض الإنسان، حتى لو قال البعض رداً على ذلك: (هذا هراء، وقد أمضيت هذه السنين الكثيرة كلها بلا فلسفة ولكن من المؤكد أنني خلال طريقي قد قمت ببعض التفكير) ومن هنا يقر فؤاد زكريا أنك أثناء هذا التفكير كنت تستخدم بطريقتك الخاصة وبلغتك الخاصة بعض الأفكار والاتجاهات الفلسفية طوال جزء كبير من ذلك الوقت. والمذهب الفلسفي عند فؤاد زكريا ما هو إلا محاولة متكاملة شديدة التنظيم للإجابة عن نفس الأسئلة الأساسية التي تلح على ذهن الإنسان كلما بدأ يفكر تفكيراً عميقاً وشاملاً وهو حين يقدم النماذج المختلفة في الفلسفة يؤكد على أن التفلسف أمر لا مفر منه، مهما تكن وجهة نظر المرء بالنسبة إلى العالم وإلى المجتمع الذي يعيش فيه، ويلفت فؤاد زكريا انتباه القارئ العربي الذي يقرأ كتبه المترجمة إلى نقطة غاية في الأهمية إذ يقول: «فإذا وجد القارئ العربي أن النماذج التي اختارها المؤلف محلية (بالنسبة إليه) تنتمي إلى بيئته الخاصة وحدها. فليعلم رغم ذلك أن أمثال هذه الأنماط يمكن أن توجد مع تحوير بسيط في أية بيئة معاصرة في عالمنا الذي تتقارب طرق التفكير فيه وخاصة بين الشباب» .الذي بدأ يجني ثمار ثورة الاتصالات والعلم والتكنولوجيا.

٢- العقلانية والسياسة

انعكست نزعة فؤاد زكريا العقلانية النقدية على آرائه السياسية، وكما سبق القول بأنه كان أحد المفكرين المؤسسين لمفهوم «الإسلام السياسي» وذلك في كتابه «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل» ثم في كتابه الآخر «الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية». وقد اصطبغت آراءه السياسية بصبغة عقلية بارزة، وكان هو ذاته يتناول آراء عصره السياسية من منظور عقلي تماماً، فلقد كان فؤاد زكريا مفكراً حراً وعنيداً مدافعاً عن أفكاره وما يؤمن به بامتياز ولعل كتابه «كم عمر الغضب» مثال قوي على معارضته لتلك الثورة وضد الأفكار التي حملتها الناصرية ثم اختلافه ومعركته مع الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل رمزها البارز، وتتجلى رؤيته العقلية النقدية من خلال مواقفه السياسية الناقدة للعهدين «الناصري» و«الساداتي» حيث يقول معلقاً على ردود الأفعال على آراءه السياسية «إن ردود الأفعال هذه كانت دليلاً آخر على صحة التشخيص الذي قمت به في هذا الكتاب للتشويه الذي لحق عقولنا بعد سنوات طويلة من الممارسات الملتوية المقيدة بألف قيد، فقد ظهر لي بوضوح كامل أن عدداً لا يستهان به من مثقفينا مازالوا يصرون على تصنيف المفكرين السياسيين في إطار تلك الثنائية المحدودة: الناصرية أو الساداتية، فأنت في نظرهم لابد أن تكون هذا أو ذاك، وإذا انتقدت أحدهم فلابد - في رأيهم أن يكون هذا النقد لحساب الآخر، أما أن يتخذ المفكر لنفسه موقعاً خارج نطاق هذه الثنائية، ويقف من الطرفين معاً موقفاً ناقداً متحرراً، كما حاولت أن أفعل في هذا الكتاب، فهذا ما يعجزون عن تصوره أو استيعابه.

وتظل نزعته العقلانية ملازمة له في كل كتبه ومؤلفاته، فهو عند دراسة مفكر مثل «أفلاطون» في كتابه «الجمهورية» يري أننا لابد أن نتذكر أننا نعيش في وقتنا الراهن، ونضع نصب أعيننا مختلف مواقف الإنسان المعاصر ونسترشد بها في محاولة تفسيرنا لمواقف الإنسان اليوناني في ذلك العصر ويرى أيضاً أن كل تفسير فلسفي للمفكرين القدماء بوجه خاص، لابد أن يكون تفسيراً عصرياً مهما كانت قوة النزعة السلفية لدى صاحب هذا التفسير، ومهما كانت الاعتبارات المصرية بعيدة عن ذهنه.

وهو في نفس هذا الإطار يعرض في أول الستينات - تلك الفترة التي بلغ فيها الصراع العربي الإسرائيلي أشده - لفلسفة أسبينوزا ذلك المفكر اليهودي الذي ولد لأبوين يهوديين ويرى

أنه لو كان قد عاش فترة ظهور الفكرة الصهيونية وقيام الدولة اليهودية، لوقف بكل قوة في صف الرافضين، وكان ذلك الاعتقاد لدى فؤاد زكريا انطلاقاً من نزعة اسبينوزا الإنسانية العالمية التي كانت تحارب أفكار الإستعلاء والتفوق العنصري، وترى أنه في اعتقاد أي شعب بأنه «مختار» نقيصة أخلاقية، والتي كانت تكافح من أجل فصل الدين عن الدولة وتحارب الخلط بين الدين والسياسة وتقدم للمفاهيم الدينية الرئيسية تفسيرات تنزع عنها طابع التشبيه بالإنسان، وتزيل التناقض بينها وبين النظرة العلمية إلى العالم.

وتنعقد طرافة فؤاد زكريا في رؤيته السياسية النقدية التي ترى أن هناك تشابهاً بين أوضاع المفكر في أوربا خلال القرن السابع عشر وضعه في بلادنا العربية من القرن العشرين، وقد كان فلاسفة أوربا في مستهل القرن السابع عشر يواجهون قوى متخلفة كانت هي المسيطرة في أغلب الأحيان على السلطة السياسية والدينية في عصرهم، وكانوا يمثلون هم أقلية مستضعفة ولكنها تملك حقيقة لا يملكها الأقوياء المسيطرون، حقيقة العقل والعلم والتجربة، في مقابل جبروت السلطة المنغلقة الغاشمة، ولقد كان التشابه واضحاً بين ذلك الوضع الذي وجد فيه فلاسفة القرن السابع عشر أنفسهم في أوربا وبين وضع المفكر العقلاني في عالمنا العربي بعد ثلاثة قرون، فمثل هذا الفكر ينتمي بدورة إلى أقلية ضئيلة تواجه قوى متخلفة تسيطر على الفكر الشعبي وتشده إلى الوراء، سلطات غاشمة ترفض الفكر وتبغض المنطق وتخشى العقل المتسق، ثم ينتهي إلى القول بأن جو الاضطهاد الفكري لا يكاد يخلو منه بلد عربي معاصر، ومن ثم يجد المفكر الذي يأبى الإذعان والرضوخ إلى مطالب السلطة إن عليه إما أن يصمت و إما أن يتحايل من أجل توصيل فكره إلى الجماهير وبذلك ينشأ أسلوب خاص في الكتابة تنفرد به العهود الاستبدادية هو ذلك الأسلوب الذي يحقق للكاتب هدفه في نقل آراءه التجديدية المتحررة إلى الناس دون أن يعطي السلطة المتربصة به فرصة النيل منه.

٣- العقلانية والنظم الاقتصادية

يطرح فؤاد زكريا وجهة نظر جديرة بالاعتبار في هذا الإطار فيتساءل، هل يتحكم الفكر في الاقتصاد أم يحكم الاقتصاد الفكر؟ إنها ذروة التناول الفكري الفلسفي عند أي مفكر، إنها عملية معقدة غاية التعقيد، فهل نسير من الاقتصاد إلى الاعتقاد والفكر أم من الفكر والاعتقاد إلى الاقتصاد ؟ يجيب فؤاد زكريا على ذلك بالقول أنه يجب أولاً أن نأخذ في

الاعتبار أن القول بوجود تفكير سائد يتلاءم مع كل نظام من النظم الاقتصادية ربما فهم على أنه يعني صبغ التفكير في كل مرحلة من مراحل التطوير الاقتصادي بصبغة نمطية موحدة، أي أنه يعني أن المفكرين في العصر الإقطاعي مثلاً يتميزون بسمات عقلية واحدة يمكن الاهتداء إليها عند كل منهم على حدة إن هذا الفهم بعيد كل البعد عن الصواب فضلاً على أنه فهم يكذب الواقع نفسه؛ ذلك لأن كل عصر يتميز بتباين فكري شديد سواء على مستوى المثقفين الكبار أم على مستوى الأشخاص العاديين أنفسهم، على ذلك فنحن حينما نتحدث عن الإطار الفكري في عصر من العصور أو عن نوع الثقافة الذي يتلاءم مع نظام من النظم، نعني في الواقع أعم السمات الفكرية المشتركة التي تلفت أنظارنا أكثر من غيرها حينما ندرس ذلك العصر، ولكن لا يتعين أن تكون هذه السمات موجودة بحذافيرها عند كل مفكر على حدة وليس من الضروري أن تكون عقول الناس كلها في ظل ذلك النظام مصبوبة في قالب فكري واحد.

كما أن الربط بين النظم الاقتصادية والجوانب الفكرية في حياة الناس في ظل هذه النظم قد يوصي بأن هناك تأثيراً مباشراً للنظم الاقتصادية في الحياة الفكرية، ولما كان الاقتصاد يهتم بالأسس المادية في حياة الناس، وقد يفسر هذا الرد بأنه يعني الأخذ بالتفسير المادي المباشر والآلي للفكر الإنساني، بحيث يعتبر هذا الفكر نتيجة مباشرة للعلاقات الاقتصادية السائدة في مرحلة معينة وتؤدي هذه العلاقات الاقتصادية إلى إنتاج أفكار الناس ومثلهم العليا وقيمهم مثلما تؤدي الآلات إلى إنتاج السلع.

هذه المشكلة تثير موضوعاً معقداً غاية التعقيد، هو العلاقة بين الجانبين المادي والمعنوي في حياة الإنسان، ودون محاولة للدخول في الجوانب المعقدة لهذه المشكلة، يكفينا أن نقول أن هناك ما يشبه الإجماع على أنه إذا كان للجوانب المادية ومن أهمها الاقتصاد تأثيرها في أفكار الناس وقيمهم ومثلهم العليا أي في الجوانب المعنوية للحياة البشرية فإن هذا التأثير لا يمكن أن يكون مباشراً وبعبارة أخرى فإن أي نظام اقتصادي لا يفرز فكراً من نوع معين يكون هو وحده الملائم له، والناتج عنه، بل إن للفكر قدراً معيناً من الاستقلال، بل لديه قدرة خاصة على أن يؤثر في الجوانب المادية لحياة الإنسان بقدر ما يتأثر بها.

وعلى ذلك فمن الضروري أن نتبين حينما نتحدث عن تأثير النظم الاقتصادية في أفكار الناس، إلا أن هذا التأثير ليس آلياً مباشراً، بل هو يسير في عملية معقدة وغاية التعقيد، ولا

يعمل في اتجاه واحد من الاقتصاد إلى الفكر بل يمكن أن يعمل في الاتجاه المضاد، من الفكر إلى الاقتصاد أو من العقل إلى المادة.

ومن ثم نخلص إلى رأي الدكتور فؤاد زكريا وفحواه أنه يمكننا أن نبدأ في دراسة الاتجاهات الفكرية العامة المرتبطة بالنظم الاقتصادية واضعين نصب أعيننا أن هذه النظم لا تستطيع أن تصب عقول الناس كلها في قوالب واحدة وأنها لا تملك أن تؤثر في هذه العقول تأثيراً آلياً مباشراً.

٤- العقلانية والدين

هاجم فؤاد زكريا عقلية الخرافة والدجل ودعاة الشعوذة والسحر والخطاب الديني المتشدد والمتزمت، وآمن بقدرة العقل على مناقشة قضايا الدين وانضم إلى معسكر العلمانيين رافعاً شعار «العلمانية هي الحل» في مقابل «الإسلام هو الحل» وكأنه يعود بنا إلى الصراع التقليدي القديم صراع العقل والنقل، الحكمة والشريعة، غير عابئ بويلات هذا الاتجاه منذ سقراط أو ابن رشد في واقعنا العربي وحتى نصر حامد أبو زيد في أيامنا الحالية؛ فذهب ناقداً واقعنا الديني حيث يري أنه مازال لدينا أناس يدافعون ويرجون للشعوذة والسحر والدجل إلى يومنا هذا، ومنهم من يؤمن بهذا وهم حاصلون علي مستويات تعليمية عليا، وكل هذا نتيجة إحساس الإنسان بالعجز عن مواجهة أزماته ومشكلاته التي يواجهها.

ويري أن الخطاب الديني الحديث والمعاصر يفتقد إلى أهم مقوماته ويتجلي حين يمارس السلطة الدينية عنفاً فكرياً ضد المخالفين لها في المنهج أو الرأي حول تفسيرات وتأويلات النصوص الدينية في إطار الإسلام. وهو يشير في ذلك صراحة إلى نموذج الدكتور نصر حامد أبو زيد الذي تعرض إلى الخروج من الجامعة وتعرض إلى محنته المعروفة، وصدرت ضده أحكام قضائية بالتفريق بينه وبين زوجته، متصوراً بأن أطروحات الدكتور نصر حامد أبو زيد وأفكاره التي قدمها لم تكن بالخطورة التي صورت بها إعلامياً والتي تستلزم كل ما مورس ضدها وضده من قمع وإقصاء وإبعاد، إلى أن اقتضي الأمر أن يترك مصر ويعيش بالخارج، فقد كان الأمر لدى فؤاد زكريا أهون من ذلك وأيسر وأنه كان بالإمكان استيعاب المشكلة واحتوائها دون إلحاق أي ضرر أو أي أذي بالرجل لو كنا نفهم حق الفهم معني وقيمة «الحرية الفكرية».

ومن أجل إيمانه بقيمة «الحرية الفكرية» وخاصة في الخطاب الديني قام بمجموعة من المناظرات والمعارك الفكرية مع رجال الدين ودعاته وعلمائه كان أشهرها مناظراته التي عقدها بدار الحكمة بدار نقابة الأطباء المصريين مع الداعية الشيخ يوسف القرضاوي وكان عنوانها «الإسلام والعلمانية» ضد دعاة الوهم والخرافة فيقول: «أنني خضت معاركي دفاعاً عن قناعتي الفكرية وكشفاً لمواقف وتيارات معينة، وسأحاول أن أضرب لك مثلاً بسيطاً موضحاً: كنت قد كتبت مقالاً عقب حرب أكتوبر المجيدة وكان بعنوان «معركتنا والتفكير اللاعقلاني» وما أن نشر بجريدة الأهرام حتى تعرضت لهجوم عنيفاً وشديداً من كل مكان حتى وصل الأمر أني لعنت علي فناء المساجد لأني حاولت تفنيد الزعيم القائل بأن الملائكة نزلت وساعدت الجيش المصري في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وقلت آنذاك إنه من الظلم البين أن ننسب الانتصار العسكري الوحيد الذي أحرزناه في العصر الحديث علي الأعداء إلى الملائكة، وتنكر الجهد الشاق الذي بذلته القوات المسلحة في التدريب والإعداد والاستعداد، ونغفل جهود كل من خطط وجهز وأعد ودرب واستعد لهذه الحرب. وكأنني قد جاهرت بكفري عندما أعلنت رأي هذا وقد رد فؤاد زكريا قصور الفهم الديني وتأخره إلى الأمية التي عصفت بمجتمعاتنا العربية، ومن ثم فقد رأي أن الأمية هي العدو الأول لكل ما من شأنه الارتفاع بالواقع العربي إلى مستويات كبيرة علي مستوى التنمية والرفع من قيمة الإنسان وذلك عبر القيمة التي ينبغي أن تتأسس عليها الحالة العربية وهي قيمة حرية التفكير وذلك للخروج من الزمن التقليدي إلى الزمن الحديث الأكثر انتصاراً واتصالاً بالعلم والحداثة.

من هنا كانت دعوته إلى تأسيس مشروع يتلاقي فيه ما هو فكري مع ما هو فلسفي لوضع صيغة عربية تضع العرب والعقل العربي في واجهة المجتمعات المتقدمة التي لا تجتر الماضي بقدر ما تصنع الحاضر والمستقبل، ومن هنا تأتي أهمية إشرافه علي كتاب عالم المعرفة ومجلة عالم الفكر في الكويت.

وفي النهاية أقول أن فؤاد زكريا كان من أبرز المدافعين عن التفكير النقدي ومن أبرز المؤسسين لخطاب العقلانية في الفلسفة والفكر العربي المعاصر، هو حلقة من حلقات الفخر والاعتزاز العربي من أمثال فرح انطون واحمد لطفي السيد وشبلي شميل وسلامه موسى وعبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود وعثمان أمين وتوفيق الطويل ومحمود أمين العالم وغيرهم ممن دعا إلى العقلانية في الخطاب الثقافي والفكري وفي وسط هؤلاء لمع نجم فؤاد زكريا الذي

وقف على الضفة الأخرى والجبهة المشتعلة المختلف عليها وحولها، على الجبهة وفي المواجهة مع من هم في غير موقعه ومكانته أو الاتجاه الايدولوجي الذي ينتمي إليه والمدرسة الفكرية والفلسفية التي نافح وكافح من أجل الذود عنها وهاجم عقلية الخرافة والسحر ووقف ضد الأفكار السوداء وأحد المفكرين الذين أصلوا مفهوم الإسلام السياسي وذلك في كتابه «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل» ثم في كتابه الآخر «الحقيقة والوهم».

ولذلك فلاشك عندي أن فؤاد زكريا صادق كل الصدق في دعوته المنهجية من التجديد إلى الثورة العقلية وهي ثورة تنبع من الداخل لا من الخارج فالثورة من الخارج تقوم على أساس الرفض والهجوم ولا تستند إلى مبررات علمية فهو يري أننا بين أمرين لا ثالث لهما إما أن نرتضي السير قدماً نحو الحضارة الحقة وهذا منهجه الاستمساك بالعقل وهنا تكون الحياة. وإما ألا نرتضي التقدم برفضنا وتخلينا عن العقل ومنهج العقل وفي ذلك الشتات والضياع.

٥- العقلانية والثورة

والجدير بالذكر أني عندما قرأت فؤاد زكريا وجدته وكأنه يعيش بيننا في هذه الأيام، معاصرا ثورتنا المجيدة ثورة الخامس والعشرين من يناير، يعالج مشكلاتنا الفكرية المتأججة، يعاصر خروج الجماعات الإسلامية التي تشبه تماما خروج المارد من القمقم، يواجه الإعلام المحتفي بالقتلة والمجرمين، يجابه الاستلاب الثقافي الذي سيطر على الشارع المصري باسم الدين، والمجد لمن قالوا «نعم» بل الجنة والنعيم الأزلي، وسحقا لمن قالوا «لا» من حزب الشيطان، بل وكأني اسمعه يجاهر بعلمانيته صارخا لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، ويعلن ويرسل رسائل علنية للقائمين على لجنة تعديل الدستور رافضا قيام أي أحزاب أو جماعات سياسية على أسس دينية. وكأنه أيضا يعيد مناظرة دار الحكمة مرة أخرى في ظروف متباينة وأكثر إلحاحا، يقف بين عادل حسين وعصام العريان وطارق البشري ليحاور يوسف القرضاوي ومحمد الغزالي، ولكنه في هذه المرة يكون أكثر شجاعة، يشهد له أعداؤه «بأنه أشبه بسباق يعدو فيه حصان واحد» يسقط المتمسكين بشكل الإسلام دون مضمونه.

وعندئذ ينتفض الخصوم يحاولون الدخول إلى الحوار يرتبون الأوراق يستعدون للانقضاض عليه فيراوغون في ثياب الواعظين المصلحين ليبدوا بالقول أنه «ما أحوج أبناء مصر، وأبناء العروبة، وأبناء الإسلام إلى أن يتحاوروا بالفكر بدلا من أن يتقاذفوا التهم أو أن يتقاتلوا

بالسلاح» وأخذوا يخاطبون العواطف - كعادتهم- دون أن يخاطبوا العقول، فشلوا في حوار العقل فاستعادوا لعبة كل زمان، وهي إعلان المروق عن الدين، تهمة كل من يدعو إلى العقل وإلى التنوير منذ سقراط الذي أتهم بأنه يكفر بالإلهة ويدعو إلى آلهة جديدة وأنه مفسد للشبيبة، التهمة نفسها لقيها رائد العقلانية وآخر فلاسفة الإسلام أبي الوليد ابن رشد وهكذا في كل عصر وحين حتى عصرنا الحالي عصر نجيب محفوظ وطه حسين ونصر حامد أبو زيد ومن سيأتي بعد فؤاد زكريا من دعاة العقلانية والتنوير، فيصف القرضاوي فؤاد زكريا بأنه يؤذن في مالطة ويتحفظ على لفظة الآذان واصفا إياه بأنه ضد الآذان على خط مستقيم!!! وعندما يشعرون بأن إعلان الحكم من النخبة سيأتي على غير ما يطمحون، يلجأون - بوعي أو بغير وعي - إلى تاريخ الفلسفة وإلى محاكمة سقراط، وكيف أن محكمة النخبة الفاهمة الحكيمة العادلة لن تفي بالغرض فلجأوا إلى محكمة الشعب التي تضم الخباز والعلاف والحمَّار والسباك والنجار والعاطل والباطل؛ ليدينوا سقراط ويحكموا عليه بتجرع السم مذابا في العسل، فيترك حكام دار الحكمة الذين أعلنوا عنوان الندوة «الإسلام في مواجهة العلمانية»؟!!! الحكم للجمهور، تماما مثلما فعل محاكمو سقراط ليتكلم الجمهور بما لم يرض فؤاد زكريا وجماعته كما حكم من قبل على سقراط.